الفصل الثانى

القسم الثانى : هو المأمور به من الله تعالى والمصدَّر بلفظ «قل»

يكاد هذا القسم أن يكون خاصا برسول الله ﷺ وبرسالته تدعيما وذودا، واستمراراً، لأن فيه الشكوى إلى الله تعالى مما لقيه وصحبه من عنت قومه وطلب المزيد من العلم والمغفرة والنصر على الأعداء، والنجاة عند نزول العذاب والاستعاذة من شر ما خلق الله من الكائنات، وهذه الآيات فى سورة الإسراء والكهف والأنبياء والمؤمنين والفرقان والزخرف والمعوذتين وتبلغ إحدى عشرة آية.

وكلمة «قل» بالنسبة للنبى الأمى الأمين ليطيّب النفوس المريضة، ويداوى جراح الآلام فى النفوس الشاردة بالوقود الروحى، وشحنة الإيمان الكامل، والعقيدة الصافية واليقين الراسخ الذى يمتاز به المؤمنون من أتباع الإسلام، الذين يسلمون وجوههم لخالقهم، ويفوضون أمرهم لموحدهم الخلاق الكريم.

فكلمة «قل» عادة فى القرآن الكريم، إنما تعالج الحياة البشرية فى ضجيجها وماديتها الجامحة، وتكالبها المسعور التى تقلقل الحياة، وتحرق الأعصاب من أوراها الملتهب، وأسقامها التى يعزّ علاجها إلا فى القرآن الكريم، الذى ينفذ إلى الأعماق فيستأصل الداء من أساسه، ويحصّن النفوس من أن يتسرب إليها ظلام اليأس فيهدد أعماقها، ويذيب ما شاع فى أنحائها من ألم نفسى، أو حيرة مترددة قاتلة، ويضع مكانها نوراً وأملاً وحقيقة وثباتا ويقينا جازما لا تردد فيه ولا قلق، فيبين لها الحق من أساسه، ويزيل الباطل فى مكمنه، ويحسِّن نسمات الأمن فتهب على النفس رخيّة نديّة البنيان، تعطر بأريجها الحياة فتجعلها واضحة مستقيمة ثابتة البنيات، راسخة البنيان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المبحث الأول

الدعاء الأول ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤]

العلم هو الغذاء الروحى الذى لا غنى عنه إذ هو حياتها ونورها وإشراقها، ومن عجب أنك لا تعثر على آية فى القرآن الكريم تطلب من المصطفى الاستزادة من شىء إلا هذه الآية، لأن الحياة من غير علم لا إحساس فيها ولا حراك كما أن العلم من غير القرآن الكريم لانبض فيه ولا حياة ولا ثمرة ولا رجاء منه.

هذه الفقرة القرآنية هى جزء فى آية من سورة طه هى قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فما نوع هذا العلم الذى أمر الله تعالى نبيه محمداً أن يطلب المزيد منه؟

هل المراد به القرآن الكريم وإذ كان كذلك فلم عبر عن القرآن بالعلم؟

وإذا لم يكن المراد بالعلم هنا هو القرآن فما المراد به إذاً، ولم قُرن بالقرآن؟

تساؤلات واستفسارات يستطيع المرء الوقوف على إجابتها من خلال رأى ابن مسعود رضى الله عنه فقد كان يقول: إذا قرأ هذه الآية «اللهم زدنى علما ويقينا» ثم يقول كأن الآية هكذا قال الله تعالى «لنبيه» (قل رب زدنى علما بالقرآن)، فإطلاق العلم وإرادة القرآن الكريم ما هو إلا تنبيه للمسلمين إلى أن مصدر العلم الحقيقى النافع هو القرآن الكريم سواء كان هذا العلم لشئون الدنيا أم لطريق الآخرة، فبعد أن بيّن فى صدر هذه الآية كيفية تلقى القرآن، أمر الله تعالى المصطفى أن يطلب منه المزيد من العلم وإن كان ابن مسعود قد فسر العلم هنا بالقرآن لأن البيئة القرآنية توحى بذلك غير أنه يجب على المسلم أن يعلم تماما أن الإسلام ودستوره القرآن الكريم لايمنع المزيد من أى نوع من أنواع الثقافة

والعلوم والمعرفة طالما تساهم هذه الأنواع فى تثبيت قاعدة التوحيد فى نفوس الخلق وتجلب لهم الخير فى عاجلهم وآجلهم.

وللمزيد من المعرفة فى هذا المقام ينبغى أن نقف على آراء المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا على الوحى وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك وأنزل ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾.

قال القرطبى: وهذا كقوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] (١) ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] أى سل الله عز وجل زيادة العلم النافع، قال الطبرى: أمره بمسألته من فوائد العلم مالا يعلم(٢) فهى لطيفة تربوية فى باب التعليم، وما ينبغى للمتعلم أن يتحلى به من تواضع وأدب جم، وتحثه على التزود من مناهل الحكمة والعرفان.

المبحث الثانى

الدعاء الثانى

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]

إن الجسم هو وعاء النفس والروح ولهذا حرص الإسلام كل الحرص على أن يظل سليماً معافى لا يتخلله الفساد، ولاتتسرب إليه الأمراض، ولقد أمر الله تعالى أنبياءه والمؤمنين بهم بالحفاظ عليه بل شملت رحمته الجاحدين نعمة المنكرين لوجوده، فأبان لهم الطريق المؤدى إلى ذلك وهو طيب المطعم والمشرب، قال تعالى:

---

(١) القرطبى: ١١/ ٢٥٠.

(٢) الطبرى: ١٦/ ٢٢٠.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون: ٥١].

فالله تعالى يأمر الناس جميعا مع اختلاف عقائدهم أن يكون طعامهم من الحلال الطيب لأن منه تنمو أبدانهم، وتتفتح أذهانهم حيث يتحول ذلك الطعام الطيب إلى دماء تغذى جميع أجزاء الجسم بما فى ذلك القلب الذى هو وعاء الإيمان والتوحيد والعقل الذى هو آلة الفهم والتعقل والتحصيل لشرائع الله تعالى والأعضاء التى تشرّفت بحركات العبادة وقامت بأعمال الطاعة. ولقد وضع القرآن الكريم قاعدة الطب الوقائى فى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١]. وختمه بقوله تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾ [البقرة: ١٩٥] لهذا كله لا ينبغى لمسلم يخاف الله ويحب رسوله أن يلتزم جانب الطب الوقائى أو العلاجى فلا يورد نفسه وبدنه موارد الهلاك وذلك باحتساء السموم السائلة والمجمدة قصد اللذة والانتشاء أو قصد التخلص من متاعب الحياة. وأدعية القرآن والسنة قد بينتا ووضحتا الكثير من المزالق التى يهوى فيها الإنسان عملا وقولا إذ بعض الناس يخاطر بنفسه دون تبصر بعواقب الأمور فيدعو على نفسه بالموت فراراً من نكبات الدهر وتقلب الزمن مع علمه بأن الرسول ﷺ قد نهى المسلمين عن ذلك.

ومن أجل هذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين باتقاء الفتن لأنها لو نزلت لاتفرق بين الصالح والطالح ولقول الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾ [الأنفال: ٢٥] والدعاء كما هو مطلوب فى الرخاء، فهو أكثر طلبا عند نزول البلاء، ولقد مرّت بالأمم الحالية ظروف قاسية بسبب ما جنته أيديهم، فأهلك الله بعضهم بالطاغية وغيرهم بريح صرصر عاتية

وفى كل حال من هذه الأحوال حفظ الله أنبياء هذه الأمم ورسلهم مما نزل ببعض أممهم ولهذا نجد المولى الكريم يعلّم نبيه محمدا أن يدعوه بهذا الدعاء وهو ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤] أى (قل يا محمد داعيا ربك إن كان لابد أن تشهدنى ماتوعدت به الظالمين من العذاب فى الدنيا ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جواب الشرط (إما) وكرر قوله (رب) مبالغة فى الدعاء والتضرع أى رب فلا تجعلنى قرينا لهم فيه فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان: ومعلوم أنه عليه السلام معصوم مما يكون سببا لجعله مع الظالمين ولكنه أُمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله[1] وقيل: أن الله أراد وهو الأعلم بمراده أن يعظّم أجر نبيه ﷺ وليجعله دائما ذاكراً فى جميع الأوقات والأماكن والأحوال، ذاكراً لله تعالى وداعيا ومنيبا إليه. ولهذا قال الزمخشرى رحمه الله: يجوز للعبد أن يسأل ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية وتواضعا لربه وإخباتاً له[2].

المبحث الثالث

الدعاء الثالث

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون: ٩٧-٩٨].

أمر الله المؤمنين فى شخص نبيهم ﷺ أن يستعيذوا بالله ويلجأوا إليه من وسوسة الشياطين وخطراتها التى تجريها على قلب ابن آدم بقصد الإفساد وإرتكاب المعاصى، والبعد عن ساحة الرحمن فقال: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾.

ولهذا كان النبى ﷺ يكثر فى دعائه من قوله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

---

(١) البحر: ٦/ ٤٢٠.

(٢) الكشاف: ٣/ ١٥٠.

أى فى أى شىء من أمرى، ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، وخاصة فى حالة الصلاة وحالة القرآن، أى قراءته كما روى عن ابن عباس، وفى حالة حلول الأجل كما روى عن عكرمة، ويلاحظ تكرار كل من العامل والنداء مما يفيد المبالغة وزيادة الاعتناء بهذه الاستعاذة، كما يلاحظ أن الجمع فى لفظ (همزات) يوحى بتكرار نخساته وتباين وساوسه وتنوعها، أو لتعدد المضاف إليه وكثرته وهم الشياطين، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت» وقال الإمام أحمد حدّثنا محمد بن اسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند الفزع من النوم: «بسم الله أعوذ بكلمات االلّه التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يُعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لايعقل أن يحفظها، كتبها له فعلّقها فى عنقه.